شبسم الله الرحمن الرحيم

[تفريغ المجلس ٣٧]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا- أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كنا شرعنا في شيح الحديث الثالث والعشرين من الأربعين، للإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي مالكٍ الحارثِ بن عاصمٍ الأشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ: {الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزانَ، وَسُبْحانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ ما بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِياءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها أَوْ مُوبِقُها}. رواه مسلمٌ [٢٢٣].

وانتهى بنا الكلام عند قوله ﷺ (والصلاة نور)، وأشرنا إلى ما ذكره أهل العلم في معنى هذا القول منه ﷺ (الصلاة نور).

[التصدق علامة على الإيمان]

قال (والصدقة برهان) المراد هاهنا أي أنها برهان ودليل قاطع على صدق المؤمن في إيمانه، ذلك بأن النفس مفطورة ومجبولة على حب المال، قال ﷻ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ الفجر، فهذه النفس ميالة للمال، وقد قيل إن المال سمي بالمال لأن الناس تميل إليه، كما قال بعضهم:

رأيت الناس قد مالوا * إلى من عنده مالُ**

ومن لا عنده مالُ * فالناس عنه قد مالوا**

فهذا المال النفس مجبولة على حبه والميل إليه، فإذا أخرجته عن طواعية لله ﷻ فهذا دليل على صدق الإيمان، وبرهان على ذلك، حيث لا تعطيه النفس إلا طالبة وراجية وجه الله ﷻ والأجر الأخروي والثواب، والجنة، ولهذا قال ﷺ (فمن أداها طيبة بها نفسه)[1] الذي يؤدي هذه الزكاة عن طيب نفس، عن رضا، عن طواعية، فذلك دليل على صدق إيمانه.

(والصدقة برهان) برهان على الإيمان، فالمؤمن لا يتصدق ولا يزكي إلا وهو يريد وجه الله ﷻ، ودافع الصدقة عنده سواء كانت صدقة واجبة، أو تبرعا وتطوعا ونافلة، فالذي دفعه هو إيمانه، فإن كان كذلك فهذه الصدقة برهان على إيمانه وعلامة على صدقه، ودليل على ذلك.

أما إذا كان يؤديها كراهية، ولأنه مغلوب على أمره، أو رياء، أو لأنه يرجو من وراء ذلك شيئا، فهذا لا تكون الصدقة في حقه والزكاة دليلا على إيمانه، ففرق بين من يؤدي مدفوعا وقصده وجه الله ﷻ، وبين غيره، وهذا معنى قول النبي ﷺ (الصدقة برهان) البرهان الدليل، الحجة، البينة، برهان على إيمان العبد، وصدقه، كما في الحديث السابق في كلام النبي ﷺ فيمن يؤدي الزكاة راضيا بها طيبة بها نفسه، ولهذا قال ﷻ ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ...﴿١١﴾﴾التوبة، وفي الآية الأخرى ﴿...فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ...﴿٥﴾﴾التوبة، الآية التي قبل هذه في نفس السورة سورة التوبة.

فإذن هذا مما يدل على إيمان العبد، والزكاة هي قرينة الصلاة، حيث تذكر الصلاة تذكر الزكاة، ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ..﴿٤١﴾﴾الحج، وهكذا في كثير من الآيات، فالزكاة قرينة الصلاة.

[1] ومطلع الحديث الذي بهذا اللفظ (خمسٌ مَن جاءَ بهنَّ مع إيمانٍ...)، رواه أبو داود (٤٢٩)، والطبراني في ((المعجم الصغير)) (٥٦/٢) (٧٧٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٩/٣) (٢٧٥٠). جوَّد إسناده المُنْذِري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/٢)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٥٢/١ وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٢٩).

[الصبر ضياء]

(والصبر ضياء) هكذا جاء في أكثر النسخ من صحيح مسلم، لكن جاء في بعض النسخ (والصوم ضياء)، الصبر هو المنع والحبس في اللغة، والمراد شرعا هو: منع النفس وحبسها على الطاعة بفعلها، وعن المعصية بتركها، وعلى القضاء والقدر بقبوله، وعدم التسخط والانزعاج منه، والتسليم لله ﷻ فيما قضى وقدّر، هذه هي حقيقة الصبر، فهذا الصبر ضياء.

[وجه كون الصيام ضياء كما في بعض الروايات]

وأما ما جاء في بعض الروايات (والصوم ضياء)، لأن الصوم تجتمع فيه جميع أنواع الصبر، ففي الصوم يجاهد الصائم نفسه على طاعة الله، فإذن يحبسها على فعل الطاعة، ويمتنع عن المحظورات، محظورات الصيام، وهذا إذن حبس النفس عن المعصية بتركها، ثم إن الصائم يتلقى ويصيبه شيء من الألم، والمشقة، والأذى، والضرر التي يستطيعها، فيصبر ويحبس نفسه على ذلك الضرر والألم الذي يصيبه، فكان الصيام جامعا لأنواع الصبر الثلاثة، فكما أن الصبر ضياء، فالصيام فيه أنواع الصبر فهو أيضا ضياء يضيء للعبد الطريق، والقلب، وإضاءته للقلب مما يحمله على الطاعة وترك المعصية.

ولهذا لما جاء الرجل يسأل النبي ﷺ -في حديث أبي أمامة- قال: دلني على عمل يدخلني الجنة، الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجة، وهو حديث صحيح، قال ﷺ (عليك بالصوم لا مثل له) وفي رواية (لا عِدل له)[1] لا يساويه شيء، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أحصن للفجر، وأغض للبصر، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[2] أي يمنعه عن الحرام، والصائم إذا صام ضعف في حقه ونفسه ما يتعلق بالشهوة، أو الميل لها ونحو ذلك.

فمما يعين المسلم على الطاعة ويضيء قلبه بالإيمان، ويضيء له طريقه في فعل الخيرات، والأعمال الصالحات، واجتناب الآثام، وترك السيئات كونه يصوم لله ﷻ.

---

[1] أخرجه النسائي (٢٢٢٠)، وأحمد (٢٢١٤٩)
[2] أخرجه البخاري (٥٠٦٥).

[أجر الصابر]

وأيضا الصبر، والصابر أجره غير معدود ﴿..إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾الزمر، الصابر أجره غير محدود، وهذا معنى قوله تبارك وتعالى كما جاء في حديث القدسي عن النبي ﷺ أن الله ﷻ قال (كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به)[1] يعني كل عمل ابن آدم يضاعف عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، أما الصيام فلا يعلم تضعيف الأجر والثواب فيه إلا الله ﷻ، ذلك لأنه قد اشتمل جميع أنواع الصبر، والصابر يوفى الأجر بغير حساب، ﴿..إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾الزمر. فهذا معنى قوله (والصبر ضياء).

[القرآن حجة لك أو عليك]

(والقرآن حجة لك أو عليك) إذا وصلك القرآن، فهو إما حجة لك إذا آمنت به وصدقت ما فيه، وعملت به، ودعوت إليه، وعملت بما فيه، وتحاكمت إلى أحكامه، فهاهنا يكون القرآن حجة لك، أما إذا جاءك فرددته لم تؤمن به، ولم تصدق ما فيه ولم تعتقد، لم تعمل به، ولم تعتقد ما فيه من العلم، ودعوت إلى غيره وإلى مناقضته، أو دعوت إلى عدم تحكيمه، أو لم تتحاكم إليه، أو لم تقبل بما فيه من الحكم، فهاهنا يكون حجة عليك، فالقرآن حجة لك أو عليك، قال ﷻ ﴿..لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ..١٩﴾الأنعام.

فالنبي ﷺ أنذر بالقرآن قومه، وهو أيضا -أي القرآن الكريم- إنذار لكل من بلغه القرآن، قال ﷻ ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ٥٢﴾الفرقان، أي من يخالف القرآن، يُجاهد بالقرآن، بأن يدعى إلى مافيه، يدعى إلى كتاب الله ﷻ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٣﴾آل عمران، فإذا قبل وصدقك، واعتقد، وعلم، وعمل،

[1] أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم(1151) ،

ودعا إلى ما فيه، فهذا يكون حجة له، وأما إن كان على عكس ذلك فهو حجة عليه، وهذا يشمل جميع الناس، سواء الحافظ له أو غير الحافظ له.

فالذي يحفظ القرآن حجة له أو عليه، حتى الذي لا يحفظ القرآن لكنه قد وصله، فالعجب من الناس الذين إذا سألتهم وقلت (هذا القرآن ماذا يكون؟) يقول (القرآن كلام الله)، (هل قرأته؟) ما قرأه، (هل تعرف ما فيه؟) لا يعرف، (إلى ما يدعو؟) لا يدري، (ما هي العقائد المركزة فيه؟) لا يدري (ما هي الأحكام الشرعية؟) لا يدري، (القصص التي فيه ما العبرة منها؟) لا يدري، ولربما تراه لا يتحرك من شاشة التلفاز، يرى الفيلم بعد الفيلم، والمسلسل بعد المسلسل، والأنباء بعد الأنباء، فإذا قلت له (ماذا تريد من وراء هذا؟) قال (هذه قصص وأخبار نعتبر منها، فإذا رأيت قصة ما فإنها تهدف إلى غرض وهدف) إذن أخبار البشر وقصصهم، وتمثيلاتهم التي أكثر ما يكون حكمها وحالها الكذب تستفيد منها وكلام الله ﷻ لا تستفيد منه؟ هذا عين الخطأ والظلم والجور في الحكم.

[مضامين القرآن الكريم]

فهذا القرآن حجّة لك أو عليك، ماذا يوجد في القرآن -كلام الله تعالى-؟ القرآن الكريم من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ماذا يوجد فيه؟ كله يدور على العقيدة، والتوحيد، وإن شئت قسمته وجعلته على أقسام ثلاثة، وإن شئت جعلته على سبعة أقسام -كما يذكر بعض العلماء- لكن كلها تعود إلى التوحيد.

ففي القرآن الكريم بيان مسائل الاعتقاد، ﴿..وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾النساء، هذه أركان الإيمان، وقال ﷻ في آخر سورة البقرة ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ...٢٨٥﴾البقرة، فيدور حول مسائل الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...١٣٦﴾النساء.

وأيضا فيه ذكر ما يتعلق بالله ﷻ في ربوبيته، وألوهيته، وأفعاله، وأسمائه وصفاته، في توحيده ﷻ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾

الأعراف، ذكر كثير من أمور ربوبيته، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ يونس، إلى قوله ﷻ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يونس، آيات كثيرة في تقرير ربوبية الله ﷻ.

وفي تقرير ألوهيته وعبادته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ الفاتحة، بل قال العلماء: كل معاني القرآن دائرة بين (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) تفسير ما بعد (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) تفسير لـ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، ولهذا ألف الإمام ابن القيم رحمه الله كتابه الذي أسماه "مدارج السالكين، في منازل إياك نعبد وإياك نستعين" ولهذا الفاتحة أم الكتاب، تضمنت كل المعاني التي في القرآن الكريم.

في توحيد العبودية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ البقرة، ﴿...ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ يونس، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ الإخلاص، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ الزمر، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ..﴿٥﴾﴾ البينة.

وأيضا توحيد الأسماء والصفات، ذكر صفات الله ﷻ وأسمائه، فهذا فيما يتعلق بالاعتقاد والتوحيد.

ويتضمن القرآن الأحكام الشرعية، أحكام الصلاة، وأحكام الزكاة، أحكام الصيام، الحج، البيع والشراء، الإشارة إلى أحكام الإجارة، الإشارة إلى أصول تتعلق بالعقود، هذه الأحكام الشرعية.

وفي القرآن الكريم القصص والأخبار، قصص الأنبياء من قبل، قصة آدم ﷺ، ونوح، إدريس، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، لوط، هود، صالح، شعيب، داود، سليمان، يونس، موسى، عيسى، إلى أخبار النبي ﷺ، وهذه القصص تتضمن أخبار الأنبياء، وإنما جاؤوا يدعون إلى التوحيد، والأحكام الشرعية من صلاة وزكاة وغيرها هي من مقتضيات التوحيد، فالذي يدخل الإسلام تلزمه هذه الأحكام.

وفي القرآن الكريم ضرب الأمثال، وهذه الأمثال فيها ما يدل على التوحيد ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾العنكبوت، الذين يتخذون أولياء دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وهل بيت العنكبوت بيت؟ أخف الأشياء يذهب به، وحال الذي يتخذ من دون الله أولياء كحاله.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾النحل، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ..٢٩﴾الزمر، هذه الأمثال يستفاد منها ما يتعلق بتوحيد الله ﷻ.

وفي القرآن الكريم أيضا الوعد والوعيد، الوعد الذي فيه بيان جزاء من يطيع الرسل، والوعيد بيان مآل وعقوبة المخالفين للرسل، وإنما جاءت الرسل بتوحيد الله ﷻ فهذا كل ما يتضمنه القرآن الكريم.

(القرآن حجة لك أو عليك)، فالتالي للقرآن والذي يتدبره، ويتمعن فيه يهتدي إلى هذه المعاني، ويُعلّم هذه المعاني، فإذا استجاب لها كان القرآن حجة له، وإن ردّها كان القرآن حجة عليه، حتى ولو لم يكن يحفظ القرآن الكريم.

[رد حجة بعض البطّالين في عدم حفظهم للقرآن]

ومن عجيب حجج البطالين مما نسمعه، إذا قيل له: احفظ القرآن، يقول: القرآن حجة لك أو عليك، فإذا حفظته ولم ألتزم وأقف عند حدوده سيكون حجة علي، إذن لا أحفظه، وهذا من تلبيس الشيطان، -طيب- وإذا لم تحفظه لم يكن حجة عليك؟! يكون حجة عليك إذا كان علمت أحكامه ولم تأتمر بها ولم تلتزم، ولم تنصع إليها، فالقرآن على من بلغه وفهم معناه حجة قائمة، والله ﷻ أمر نبيه ﷺ أن يجاهد به، وجاهدهم به جهادا كبيرا، وأمر بإبلاغه ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ..١٩﴾الأنعام، فمن بلغه فقد بلغته الحجة، فإن كان متابعا له كان حجة له، وإن خلّفه وراء ظهره واتخذه ظهريا كان حجة عليه.

[لن تدوم الدنيا لأحد]

(كل الناس يغدو) لا يبقى أحد، هل دامت لأحد من قبلنا؟ هل هناك من طال به العمر ولم يمت، نوح ﷺ أرسله الله في قومه فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ثم مات، فلا أحد يبقى، وإنما هذه الدنيا سفر وطريق عبور، وكل الناس يفارق لا يبقى أحد، وهم على قسمين:

(فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) كل واحد في هذه الدنيا مسافر، عابر للطريق، قال ﷺ (مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا؟ إنما مَثَلي ومثلُ الدنيا كراكبٍ ظلَّ تحت شجرةٍ ثم راحَ وتركَها)[1] قال من القيلولة، قال يقيل قيلولة، أي نام، ليس قال يقول -فرق- (مالي وللدنيا ، ما أنا والدنيا؟ إنما مَثَلي ومثلُ الدنيا كراكبٍ ظلَّ تحتَ شجرةٍ ثم راحَ وتركَها) والكل كذلك، الدنيا فيها باب تدخل منه، وآخر تخرج منه، فالناس كلهم يغدون وينصرفون ويخلّفون الدنيا من ورائهم، وكلنا في هذه الدنيا يضرب ويعقد صفقة، لكن من الناس رابح، ومنهم خاسر ﴿..فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ آل عمران، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يونس.

[الصفقة مع الله تعالى]

هذا مثل الحياة الدنيا، ليست شيئا، والكل بائع نفسه، ومبرم لصفقة بيع، هذه الصفقة من الناس من يعتق بها نفسه من النار، ومن الناس من يوبقها، ويغمسها في النار، فإذن كلُّ ذاك الرجل، كلنا عابر في الدنيا وغاد، ومخلّف ما خلفه لغيره، وكلنا يعقد صفقة بيع، فانظر إلى هذه الصفقة، هل هي صفقة رابحة التي تعقدها، أم صفقة خاسرة، إن كان ديدنك في الدنيا اللهو واللعب واتباع الشهوات، وارتكاب المنكرات، والبعد عن الأعمال الصالحات، والأفعال الخيرات، والانغماس في شهوات الدنيا، واتباع سبل الضلال والكفر، فيا لعظمة خسارة الصفقة التي تعقدها، وإن كان بيعك وصفقتك في الدنيا كما قال

[1] أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠٩).

ﷻ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ..﴿١١١﴾﴾التوبة، قدم هنا الأنفس على الأموال، مع أن سياق القرآن الكريم ﴿..بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، لكن في هذا الموضع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ ..﴿١١١﴾﴾التوبة، هذه هي الصفقة لا توجد صفقة أعظم من هذه -كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ) الصفقة صفقة بيع وشراء مع الله ﷻ ليس مع أحد، ولما تولى الله ﷻ إبرام هذه الصفقة دل على عظمتها، يعني كبير القوم -في ميزان البشر ولله المثل الأعلى- هو الذي يعقد الصفقات أو عنده عمّال؟ يعني في الواقع تجد رئيس البلد هو الذي يبرم صفقة تجارة وعقود واستثمار بين بلدين أو وزراؤه وعمّاله؟ فإن تولى عقد صفقة ذلك لأهميتها، فهو الذي يتناولها بيده ونفسه.

فهذه صفقة مع الله ﷻ لم يجعل وسيطا يعقد معنا هذه الصفقة، بل تولى أمرها ربنا ﷻ -كما قال ابن القيم- هذا يدل على عظمة هذه الصفقة، (إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) فهو الذي اشترى من المؤمن (أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم) هذه هي السلعة، نفسك ومالك، هذا الذي تقدّمه (بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ) هذا هو الثمن، الجنة، يشتري ﷻ من المؤمن نفسه بثمن هو الجنة.

وعجيب والله! هو كله لله، هل نملك نحن شيئا من أنفسنا؟ الخالق هو الله ﷻ وخالق الجنة هو الله ﷻ، والموفق للعمل الصالح هو الله ﷻ، فما عليك إلا أن تجهد نفسك وتسير بها في الطريق الصحيح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾التوبة، أعظم به بيعا، صفقة من أعظم الصفقات، أحد طرفيها والذي تولاها هو الله ﷻ، وثمنها الجنة، وعقدها مع الله ﷻ فهذه من أعظم الصفقات.

(كل الناس يغدو فبائع نفسه) إن باعها لله ﷻ ثمنها الجنة، (فمعتقها) أعتقها من النار (أو موبقها) إن باع نفسه للشيطان، والهوى والشهوات، وزخرفة الدنيا، والملذات، والمحرمات، فموبقها، أوبقها أغرقها في الهلاك، غمسها في الضياع والضلال -عياذا بالله تعالى-.

فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن غدا وباع نفسه فأعتقها من النار، ونسأله ﷻ ممن وفقوا لصفقة عظيمة، وهي أن نشتري الجنة من الله ﷻ بأنفسنا وأموالنا، ونسأله تعالى أن يوفقنا لذلك إنه سميع قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.